القديس اثناسيوس الكبير

مجموعة من المؤلفين

الفصل الأول : حياة القديس اثناسيوس الكبير

مقدمة

في الثاني من شهر أيار تقيم الكنيسة المقدسة ذكرى نقل رفات القديس أثناسيوس الكبير وتهتف له بهذه العبارات:
(لقد صرت عموداً للرأي المستقيم موطداً الكنيسة المقدسة بالعقائد الإلهية، يا رئيس الكهنة أثناسيوس، لأنك لما كرزت بمساواة الابن للآب في الجوهر، خذلت آريوس أيها الأب البار. فابتهل إلى المسيح الإله أن يمنحنا الرحمة العظمى).
(لما غرست عقائد الرأي، نزعت أشواك العبادة الوخيمة، وأنميت بذار الإيمان بغيث الروح، فلذلك نمدحك أيها البار أثناسيوس).
بهاتين الطروباريتين تعطينا الكنيسة فكرة واضحة موجزة عن حياة هذا البار في جوهرها، لأنها تسهر بتقليدها الحي على تنشئة أجيالها على القداسة فتجعل قديسيها منتصبين دوماً أمامنا نستوعب من مثالهم ونلتمس قدوتهم الصالحة، لتصبح الحياة ضمنها تياراً واحداً مستمراً متحركاً يجري (كسواقي النعمة)، فيصل الماضي بالحاضر كسلسلة أحداث متلاحمة متماسكة تحث على التوبة وتشجع على الإيمان القويم !
يلفت انتباهنا هذا القديس الذي بذل خمساً وأربعين سنة في خدمة (الكلمة) (اللوغوس)، والدفاع عن ألوهيته. إنه يثير اهتمامنا بنوع خاص لأن الكنيسة اجتازت بفضل بطولته وصلابته، مرحلة عسرة كادت تهدم كيانها وتزعزع أسسها ! نظرة خاطفة إلى حياته قد تعبِّر أكثر من كتاباته وأكثر من أي تعليق عن شخصية هذا الرجل الجبّار.

كنيسة الإسكندرية في أواخر القرن الثالث

ولد أثناسيوس، غالباً، في الإسكندرية حوالي سنة ٢٩٥ أو ربما بعد ذلك بقليل في عائلة مسيحية ورعة. ويقول القديس غريغوريوس النازينزي: (لقد شبّ منذ البدء في الممارسات الدينية وسيرة التقوى) (العظة ٢١ ، ٦). والإسكندرية، في نهاية القرن الثالث، عاصمة تعج بالحركة والنشاط تتشعب فيها حضارات مختلفة وتنشأ فيها التيارات الفكرية المتنوعة إنها مرفأ مزدهر تختلط فيه شعوب من بلدان متعددة ومركز للعلم والثقافة ذو مجتمع راق يحب الإطلاع والمناقشة والمجادلة. ترعرعت فيها المسيحية بطريقة عجيبة وانتشرت انتشاراً باهراً، لمعت فيها أسماء نيّرة: افلوطين الفيلسوف، اقليموس الإسكندري، أوريجانس البليغ، فكانت مهد الفلسفة والأبحاث المنطقية وازدهار الفكر الإنساني من كل النواحي.

القديس اثناسيوس الكبير

أمّا كنيسة الإسكندرية فهي أيضاً متفوّقة، لها مدرستها وأساتذتها. رئيس أساقفتها يدير شؤون مصر بكاملها حتى حدود ليبيا الحالية ويرأس حوالي مئة أسقف ويُلقب (ببابا إفريقيا). وهي كنيسة حيّة تعلّم وتكرز، تعمّد وتحتفل بالأعياد السيّدية، تنعم بالطمأنينة بعد أن تلاشت الاضطهادات حيناً وتترعرع بأمن واستقرار. دام هذا النعيم حتى سنة ٣٠٣ حين أتى بغتة الإمبراطور ديوكليسيانوس، وهذا آخر مضطهد عرفه التاريخ {أي التاريخ الروماني (الناشر)}، بمرسوم منع فيه التجمعات المسيحية وأمر بهدم الكنائس وإتلاف الكتب الدينية! فعادت الدماء تُسفك من جديد في مختلف أنحاء الإمبراطورية، وانتشر الذعر، وامتلأت القلوب خوفاً وزجّ الكون رهباً! قد يذكر أثناسيوس وهو في العاشرة من عمره، شيئاً من هذه البشاعة (لأنه مخضرم بين الكنيسة المعذبة والكنيسة المنتصرة) فتركت في قلبه تعاسة ويأساً ولكنها أكسبته صلابة الشهيد وجأشه، وكوّنت شخصيته إلى حد الشراسة أحياناً! يخبرنا أفسابيوس القيصري المؤرخ كيف أن السلطة أمرت بأن تقام الخدم في كافة المعابد الوثنية وعلى المواطنين جميعهم أن يَنْحَنوا أمام المذابح ويقدّموا البخور فيها. وكل من يأبى ذلك يُقاصَصْ قصاصاً مرّاً: (... تقلع العين بالخنجر ويحرق جذرها ثم يدفع بالمسكين أمام المذبح الوثني ويُناوَل المبخرة لكي يسجد أمام الآلهة وحينئذ يحسب من عداد الذين أنكروا مسيحيتهم!)...

دامت هذه الاضطهادات عشر سنوات تتأزم تارة وتتلاشى تارة أخرى حتى وفاة ديوكليسيانوس. ما كان مصير الذين أنكروا دينهم تحت الضغط ؟ هذا السؤال سبّب مشكلة في الكنائس وخاصة في كنيسة الإسكندرية. تكوّنت في هذه الأثناء جماعة من المسيحيين يحسبون أنفسهم (أنقياء) أي الذين صمدوا أمام الاضطهادات ولم يجحدوا، ترأسهم الأسقف ملاسيوس وخاصموا رئيس الأساقفة بطرس إذ وجدوا أن موقفه متسامح مع الذين ضعفوا! فانشق ملاسيوس وأتباعه عن الكنيسة. وما لبث أن استشهد بطرس ذلك الأسقف القديس وخلفه الباب ألكسندروس الذي تأثر لوضع الكنيسة الأليم وأراد أن يعيد الأمن إليها مسترجعاً أعضاء الكنيسة المنشقين.

بزوغ أثناسيوس

أفسح المجال أمام ألكسندروس لهذا العمل إذ كان كل شيء على ما يرام من الناحية السياسية. فبعد وفاة الإمبراطور الطاغية سجّل أحد خلفائه، قسطنطين الأول، وكان محبذاً للمسيحيين، انتصارات هامة جعلته الحاكم الأوحد على القسم الغربي من الإمبراطورية، فاتفق سنة ٣١٢ مع مشاركه في الحكم، إمبراطور الشرق، على إنهاء الاضطهادات وإعطاء حرية ممارسة الأديان للجميع. حسب القديس غريغوريوس اللاهوتي لم يمض أثناسيوس وقتاً طويلاً في دراسة العلوم الدنيوية واكتساب ثقافة عامة. لكنه كان له بدون شك معرفة كافية بالفلسفة القديمة خاصة بالأفلاطونية الجديدة. وكان قد اهتمّ خاصة أثناء سني تحصيله العلمي بدراسة الكتاب المقدس الذي كان يعرف كل أسراره. وربما قد تتلمذ على أيدي بعض أساتذة مدرسة الإسكندرية الشهيرة. وفي حوالي سنة ٣١٣ كان أثناسيوس ينهي دروسه اللاهوتية فلفت انتباه أسقفه ألكسندروس لحدة ذكائه وسعة إمكاناته، فاهتم الأسقف بمتابعة دروس أثناسيوس ورسمه شماساً في سنة ٣١٩ وجعل

منه أمين سره. وبادر معه إلى ترتيب أمور الكنيسة التي تضعضعت بسبب هذه الكوارث كلها. لكن هذه الجهود لم تُبذل بأمان لأن شيئاً آخر كان يحول دونها: أحد كهنة الإسكندرية المسمّى آريوس الذي يدّعي الفلسفة والتقشف كان يُعكّر صفاء الجو بنشره آراء بعيدة كل البعد عن الاستقامة! يستند على أتباع ملاسيوس ليكتسب قوة، ويعبِّر بكلمات فصيحة ويبدي براهين كتابية ليثبت أن الابن، الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس ليس بإله وإنما هو أول المخلوقات وأرفعها مرتبة، أي ليس مساوياً للآب في الجوهر! حتى لو دعوناه إلهاً، يقول آريوس، إنه ليس بإله في الحقيقة بل الاسم فقط! لم يكن موجوداً منذ البدء إذ أن له بداية ولا يتنعم بجوهر الآب ولا بطبيعته! آراء أوريجنيسية مزيّفة؟
أفلوطينية محرّفة؟ على كلٍ هرطقة أكيدة! اضطرب ألكسندروس بهذه الأنباء، فاستدعى آريوس واستجوبه ليتحقق مما سمعه فاضطرب أكثر وأكثر وعقد مجمعاً ضمّ كل أساقفة مصر، وحكم على آريوس سنة ٣٢٠. لكن آريوس لم يبال بهذا الحكم بل فرّ هارباً إلى قيصرية فلسطين ليزرع فيها بذور الشك والأذى. استقبله أسقفها أفسابيوس بكل ترحاب، وإن لم يشاركه تماماً رأيه، لأن عداوة قديمة أو بالحري منافسة كانت تفرِّق بين الكرسيين الإسكندري والقيصري. ثم انتقل من هناك إلى نيقوميدية في آسيا الصغرى حيث وجد أرضاً خصبة لزرع هرطقته لأن أسقفها المدعو أيضاً أفسابيوس والذي كان له مكانة مهمة ونفوذ ظاهر في البلاد، شاركه الرأي بدون تردد، بل تبنّى الفكرة من أساسها وأصبح الاثنان منذ ذلك الحين عدوّين لدودين لألكسندروس! أخذت حينئذ البلبلة تنتشر في الكنيسة والأساقفة في كل الأنحاء يتحيّرون ويترددون لا يدرون أي موقف يتخذون... إلى أن حصلت أحداث سياسية أوقفت آريوس عند حدّه!

مجمع نيقية

في سنة ٣٢٤ انتصر قسطنطين على ليسينيوس إمبراطور الشرق بعد أن اهتدى إلى المسيحية وأصبح هو المتسلط الوحيد على الإمبراطورية الرومانية كلها. أول مهمة أراد أن يقوم بها هي أن ينشر السلام والأمن في إمبراطوريته الشاسعة وخاصة في الإسكندرية حيث الآريوسيون يشاغبون ويزرعون الفوضى. فقرّر أن يعقد مجمعاً مسكونياً في نيقية يرئسه هو بنفسه (كأسقف من الخارج). فاجتمع كل أساقفة (المسكونة)، أي حوالي ٢٢٥ أسقفاً، في ٢٥ تموز سنة ٣٢٥. أول مشكلة طرحت في هذا المجمع كانت مشكلة آريوس وخلافه مع ألكسندروس. فانتصب آريوس أمام الجميع وشرح نظريته. وما أن انتهى حتى دعمه سبعة عشر أسقفاً فقط أمّا الأكثرية الساحقة فكانت من جهة ألكسندروس أسقف الإسكندرية. فُحكم على آريوس وانتصر الرأي المستقيم الذي كان يمثّله مركلّس الأنقيري وأثناسيوس وطبعاً تحت إشراف الإمبراطور نفسه! ولكي يتبدد الشك إلى الأبد نُص دستور الإيمان الذي نتلوه كل أحد في القداس من أوله إلى العبارة (وبالروح القدس) }وقد أكمل الدستور في المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية، لذلك يُدعى عادة بالدستور (النيقاوي القسطنطيني). راجع الفصل الأول من كتاب (مدخل إلى العقيدة المسيحية) لكوستي بندلي ومجموعة من المؤلفين، و (مجموعة الشرع الكنسي)، في منشورات النور{. ويلي هذا الدستور في مقررات المجمع الملاحظة التالية: (كل من يقر بأنه كان

وقت لم يوجد فيه الكلمة، وأن الابن خُلق من العدم أو من أي مادة أخرى، وأنه مخلوق، متغيّر أو متبدل، فالكنيسة تبسله ابسالاً!).
ولنتمعن الآن في أهمية أثناسيوس أثناء المجمع. لم يكن آنذاك سوى شماس بسيط يرافق أسقفه. لم يكن له بالتالي أن يتدخل في النزاع، لكنه كان هو بالحقيقة بطل نيقية، إذ كانت القضية حياتية بالنسبة إليه لأنه يعلم تمام المعرفة أن تعليم آريوس بالنتيجة يريد إمّا تحطيم الابن الذي ترتكز عليه المسيحية أو الوصول إلى تعدد الآلهة في الإقرار بأن الكلمة نصف إله! لذلك كان يعمل كالنحلة بالقرب من أسقفه يهيئ له القرارات ويساهم في نصها، ويعمل بحماس ونشاط لإقناع الأساقفة حتى أنه لفت انتباه الجميع الذين وجدوا أن موقفه كان جازماً وجسوراً. منذ ذلك الحين أصبح هو (رجل نقية)، ولم تكن حياته فيما بعد إلا للدفاع عن هذا الدستور والسهر على أن لا يتزعزع منه حرف، إذ ما إن انتهى المجمع حتى بدأت الدسائس تعمل لتطعن بمقرراته وبدأ زملاء آريوس يسعون ليقرّبوه من قسطنطين. ولم يمض وقت طويل حتى نال رضاه وأخذ يهيئ نفسه للرجوع إلى الإسكندرية بعد أن وقع على دستور مشبوه يقترب من دستور نيقية.

أثناسيوس أسقف

توفي ألكسندروس رئيس أساقفة الإسكندرية وكان من الطبيعي أن يخلفه أثناسيوس لأنه برهن عن ذكاء ودهاء وشخصية بارزة وكان له كثير من المعجبين. ويقول مجمع الإسكندرية المنعقد في سنة ٣٣٩: (إن كل الشعب، كل المنتمين للكنيسة الجامعة اجتمعوا ونادوا بالإجماع وبصوت واحد بأثناسيوس أسقفاً عليهم وأصرّوا على هذا الرأي واستمروا في الصلاة من أجل ذلك للمسيح علانية مدة أيام وليالي عديدة). وفي ٨ تموز ٣٢٨ رسم أثناسيوس أسقفاً على الإسكندرية على يد العديد من الأساقفة وكان عمره لا يتجاوز الثانية والثلاثين. ولكن هذه الرسامة أثارت بلبلة ومشاكل متعددة. ومن هنا يتبيّن لنا أن التاريخ يعيد نفسه وأن الشخصيات القوية أمثال أثناسيوس التي لا ترضخ إلا للحق والمسيح، تثير الرعب في النفوس الضعيفة لأن استقامتهم تكشف عن هزالتها! ولكن الروح القدس يعمل دوماً في الكنيسة ليرعاها وينتصر على القوات الشريرة. لذلك رغم الآريوسيين ومناصرتهم انتُخب أثناسيوس أسقفاً على الإسكندرية. فملأ الفرح المدينة بأسرها وقرعت أجراس الكنائس لأنه كان ينعم بتأييد شعبي عظيم في المدينة. فزار الأسقف الجديد كل أنحاء أبرشيته، بما في ذلك الصحراء مما جعله يلتقي باخوميوس {باخوميوس أب الرهبنة (الجماعية) (Cénobitique) وقد ورد في سيرة الأنبا باخوميوس: (لما وصل (أثناسيوس) إلى دوفانيس خرج أبونا باخوميوس مع جماعة الإخوة في حفل كبير وجمع غفير واستقبله استقبالاً حسناً بالصلوات الكثيرة والتسابيح والشموع...)} الذي كان يحترمه كثيراً ويسمّيه (أب الإيمان الأرثوذكسي).
ولكن الأحوال تأزمت وتطورت وبدأت المعارك تدور بين الأخصام خصوصاً عندما رفض أثناسيوس بحزم أن يدخل آريوس مدينته ثانية وكتب بجرأة رسالة إلى قسطنطين يشرح له سبب رفضه. فابتدأت الشكاوى تُرسل للإمبراطور ضد الأسقف البار يستميلونه ويوشون بأثناسيوس متهمين إياه بكل أنواع التهم لكي يبعدوه بالقوة عن أبرشيته. فعُقد مجمع في

القديس اثناسيوس الكبير

صور سنة ٣٣٥ كان فيه كل أعداء أثناسيوس على موعد ليقهروه. لكن أثناسيوس لم يبق مكتوف اليدين. فبعد أن دافع عن نفسه بشدة أمام المجمع وبينما كان الأساقفة مجتمعين لتقرير مصيره فرّ بطريقة سرية إلى القسطنطينية، ويقال أنه فاجأ قسطنطين في الطريق وطلب مواجهته! فاستدعى الإمبراطور أساقفة صور. وما أن بحث معهم بالأمر حتى وشوا بأثناسيوس مدّعين أنه يريد منع شحن القمح من الإسكندرية إلى القسطنطينية، مستشهدين بشتى الأكاذيب. فنُفي أثناسيوس إلى مدينة تريف في الغرب وكانت هذه أول مرحلة من سلسلة حوادث مؤلمة في حياة هذا القديس. ظاهرياً كان النصر قد تحقق لآريوس لكنه سرعان ما توفي تاركاً أتباعه الهراطقة الذين لم يكفّوا عن محاربة بطلنا هذا !

بقي أثناسيوس دون خلف وبقي كرسي الإسكندرية شاغراً يتيماً إلى وفاة قسطنطين سنة ٣٣٧. قُسّمت الإمبراطورية من جديد بين أولاده واستلم كونستانثوس القسم الغربي وقوسطنضيوس القسم الشرقي. لكن كان يميل هذا الأخير إلى الآريوسيين. سمح الإمبراطوران الجديدان أن يعود أثناسيوس إلى أبرشيته. فعاد بعد غياب سنتين، واستلم الأبرشية بمحبة وازداد نشاطاً في تنظيم أحوالها. وعلم ما للنسك من أهمية في تخمير العجين فطلب معونة آباء الصحراء.

وأمّا أخصام أثناسيوس الذين يتزعمهم أفسابيوس أسقف نيقوميدية، العدو اللدود، فلم يرتاحوا لهذا التطور وقرروا أنه يجب إبعاد هذا الإنسان المزعج عن أبرشيته بأية وسيلة كانت! فكتبوا إلى البابا يوليوس يذكرونه بمقررات مجمع صور. ولكن، قبل أن يرسل البابا جواباً على رسالتهم هذه، اجتمعوا في إنطاكية سنة ٣٣٩ وعزلوا أثناسيوس معيّنين مكانه أسقفاً غريغوريوس الكبادوكي. وقد دخل الأسقف الجديد إلى الإسكندرية بمعاونة فرقة من الجيش واقتحم الكنائس اقتحاماً وسط معارضة عنيفة من قبل الشعب. فرأى أثناسيوس أنه من الحكمة أن يبتعد عن مصر، فذهب إلى رومية حيث عقد الباب يوليوس مجمعاً ضم مئة أسقف برّأ أثناسيوس من كل التهم الموجهة إليه من أخصامه. ثم جمع مجمعاً آخر في سرديقية سنة ٣٤٣ أعاد لأثناسيوس حقوقه الشرعية. لكن قرارات هذا المجمع لم تُنفذ إلا بالقوة أي بتدخل الأباطرة، إذ طلب الباب من قوسطنضيوس حاكم العرب، بأن يتدخل مع أخيه ليعاد أثناسيوس إلى أبرشيته. فبقي هذا الأخير في رومية يتعرف على الغرب وينشر التعليم فيه إلى وفاة غريغوريوس سنة ٣٤٦ حين استطاع أن يدخل بانتصار إلى الإسكندرية.

خصب روحي يليه نفي ثالث

كانت الفترة ما بين سنة ٣٤٦ و ٣٥٦ فترة خصب روحي بالنسبة لأثناسيوس وأبرشيته، لجأ أثناءها للكتابة. وقد وصف أثناسيوس نفسه النهضة الروحية العارمة التي عمّت الإسكندرية في تلك الفترة والتي تتلخص بتكاثر عدد الرهبان والراهبات، وإقبال متزايد للعائلات على حياة التقشف والصلاة، وإحداث منظمات للخدمة الاجتماعية، وإقامة اجتماعات روحية في البيوت وانتشار روح السلام والوئام في كل الرعية والإكثار من المواعظ والنشرات الرعائية الدورية {يتكلم أثناسيوس في (تاريخ الآريوسيين) قائلاً: (كم

من عذارى نذرن أنفسهن للمسيح بعد أن كن يطلبن الزواج... وكم من شباب تغايروا بالغيرة الحسنة.. فخرجوا من العالم للحياة الرهبانية.. وكم من آباء أقنعوا أولادهم وكم من أولاد أقنعوا آباءهم بمزيد من النسك المسيحي.. وكم من زوجات أقنعن أزواجهن وأزواج أقنعوا زوجاتهم وتفرغوا للدخول في عهد الصلاة.. وكم من أرامل وكم من يتامى كانوا جياعاً، عراة وبحماس الشعب أشبعوا واكتسوا.. وكانت غيرة الشعب ومنافسته على الفضيلة شديدة إلى حد يكاد يظن أن كل عائلة وكل بيت قد صار كنيسة.. والسلام كان يرفرف على الكنائس) (تاريخ الآريوسيين ٢٥، ٢٧...)}. فألف أهم أبحاثه: (ضد الآريوسيين) (مقررات نيقية) الخ.. وكثيراً ما يختار من بين الرهبان مساعدين فيرسمهم أساقفة ويكلّفهم بمسؤوليات متنوعة. ولكن ما إن توفي حاميه سنة ٣٥٠ والبابا يوليوس حتى تنفس أعداء أثناسيوس الصعداء. بموت أخيه أصبح كونستانثوس الآريوسي وحده المتسلط على الإمبراطورية بكاملها وكان يريد إنهاء هذا الأسقف الذي يزداد قوة ونشاطاً وينشر بشغف إيمان نيقية! فاتفق مع البابا الجديد ليباريوس على عقد مجمع يدرس هذه الأمور. فاجتمع الأساقفة في مدينة أرل (سنة ٣٥٣) ثم في مدينة ميلان (سنة ٣٥٥) وطلب الإمبراطور في هذا المجمع الأخير من الحاضرين وتحت الضغط أن يوقّعوا على حكم ضد أثناسيوس. وعندما شعر بترددهم طلب منهم بأن يختاروا بين النفي أو التوقيع. ويروي أثناسيوس أن كونستانثوس قال: (ما أريده أنا هذا هو القانون!). فوقع أكثرهم ونفي كل من رفض، أمّا البابا الذي أبى أن يوقع فأبعد إلى حدود بلغاريا!).

وهكذا بينما كان الجميع يخضعون تحت حكم هذا الإمبراطور الشرس كان أثناسيوس يمثل الرأي المستقيم الذي يأبى أن يرضخ لأي إنسان لا يستمد سلطانه من الله. حُكم على أثناسيوس بالنفي وأُنتُخب مكانه أسقف مشاغب يُدعى جاورجيوس. وكان القرار قد اتخذ ولم يبقَ سوى التطبيق وكان ذلك في أوائل سنة ٣٥٦. يخبرنا أثناسيوس كيف حصل ذلك: (... كان ليل. الشعب كله ساهر في الكنيسة.. ظهر بغتة سيريانوس القائد مع ٥٠٠ جندي وأحاطوا بالكنيسة لكي لا يستطيع أحد أن يهرب. أمّا أنا فلم أشأ أن أترك شعبي وسط هذه الضوضاء فجلست على المنبر وطلبت من الشماس أن يقرأ المزمور (رحمة الرب إلى الأبد). ثم طلبت من الشعب أن يترك الكنيسة. ففي الحال دخل الجند إلى الكنيسة وأحاطوها من كل النواحي ليلقوا القبض عليّ! فطلب الكهنة مني بإلحاح أن أهرب. فرفضت أن أترك المكان قبل أن يكون كل واحد من الحاضرين بأمان. فهجم جماعة من الرهبان واختطفوني بقوة إلى خارج الكنيسة. وإني أشهد بالحقيقة أنه رغم فرق الجيش هربت دون أن يراني أحد مقتاداً من الروح!).

وهكذا للمرة الثالثة اضطر أثناسيوس أن يبتعد عن أبرشيته. فلجأ هذه المرة إلى الصحراء بعيداً عن العالم والإدارة الكنسية المستقرة في أمجادها العالمية التي تخاف أن تجابه السلطات وتضع حداً لتدخلها! ذهب إلى الصحراء لمواجهة الابن، الكلمة المتجسد، الأقنوم الثاني للثالوث الذي ضحّى بحياته كلها من أجله! طاب له العيش مع النساك الذين احتقروا المجد الدنيوي والغنى ليلتقوا بإلههم الحي في الوحدة والصلاة لكنه لم ينقطع عن أبرشيته، بل بقي على اتصال دائم بها يدير أمورها من بعيد ويرعاها بإخلاص حتى لُقب (بالبطريرك المخفي عبر القفر).

القديس اثناسيوس الكبير

أثناء غيابه هذا أخذ الإمبراطور كونتسانتوس يشنّ حملة اضطهادات واسعة على كل من بقي على إيمان نيقية، وأقيمت مجامع ضمّت كل الهراطقة الذين حاولوا أن يحرّفوا دستور الإيمان ويشوّهونه. فكان مجمع في مدينة ريميني (Rimini) في الغرب وآخر في سلوقيا في الشرق سنة ٣٥٩. وارتفع حينئذ صوت هيلاريون البار الذي لُقب بأثناسيوس الغرب يقول: (ما بالكم تسمعون أن المسيح ابن الله الوحيد ليس بإله حقيقي وتسكتون! السكوت يعني الموافقة على هذا التجديف!). لكن لم يُسمع صوته وخُفي أثره في منفى بعيد كما نُفي كثير من الأساقفة المعارضين!

أمّا الروح القدس الساهر على كنيسته، فلم يسمح بهذا الفرط من الاستبداد، فاستعمل الأحداث السياسية لكي يهدئ الأمور. ففي هذا الوقت عينه نادت كتائب الجيوش المنتصرة في غالية بيوليانوس كقيصر جديد ومشت تحت لوائه لمحاربة كونستانتوس واغتصاب الحكم منه. لكن سرعان ما توفي الأخير سنة ٣٦١ سامحاً للمنتصر بدخول القسطنطينية.

نهاية حياة أثناسيوس

يوليانوس الجاحد! هكذا لقّبه التاريخ. أمّا المؤرخون فدعوه يوليانوس الفيلسوف وربما يصلح له هذا الاسم لأنه كان رجل علم وفلسفة علاوة على ميزاته الحربية. برهن يوليانوس عن تسامح فيما يختص الأديان ولم يشأ أن يتدخل بأمور الكنيسة. لكنه أراد أن يعيد تراث الوثنية فأنشأ من جديد المعابد والهياكل دون أن يسيء إلى باقي الأديان. ما أن تولى الحكم حتى سمح للمنفيين بالرجوع إلى بلادهم. فعاد أثناسيوس إلى الإسكندرية سنة ٣٦١. وما أن علم الشعب بذلك حتى هجم على الأسقف جاورجيوس ولولا الشرطة لقتله فوراً! وعاد الفرح إلى قلوب الجميع واستقبلوا أسقفهم بحفاوة! وهكذا تابع أثناسيوس عمله الرعائي وكأنه لم يترك أبرشيته: يكر ويعظ ويعمّد بلا انقطاع! وقد دعي إلى مجمع كبير في السنة ٣٦٢ اشتهر بتحدياته العقائدية المهمة.

لكن ما إن سمع يوليانوس بنشاط الأسقف حتى غضب، خاصة حينما علم أن أثناسيوس بجسارته المعتادة أخذ يعمّد سيّدات وجيهات من المجتمع الراقي. فأمره أن يترك المدينة للحال وإلا يقاصص بقساوة! وهكذا كان في أواخر سنة ٣٦٢.

فهرب إلى الصحراء مجدداً.. في هذه الفترة تعرّف على أنطونيوس الكبير وارتبط به بصداقة حميمة. وكان أنطونيوس المتوحّد الذي كان ينمو في التقوى والكمال متمثلاً بإيليا النبي، مستعداً لمقابلة وجه الله الحيّ في حاضر مستمر وسط البادية القاحلة. وقد بقي أنطونيوس طيلة حياته الصديق الأمين المخلص لأثناسيوس يسنده بصلواته ومحبته. ثم قُتل يوليانوس فعاد إلى المدينة سنة ٣٦٤ عندما استلم ليوقيانوس الحكم.. ثم قُتل ليوقيانوس واستلم فلانسيوس الإمبراطور الآريوسي الحكم على الشرق... فهرب أثناسيوس سنة ٣٦٥ ثانية... ثم لأسباب مبهمة أُعيد لأبرشيته... فذهب الشعب للمرة الأخيرة بموكب عظيم مؤثر ليصطحبه من مكان انعزاله سنة ٣٦٦ وسلّمه أبرشيته الشاغرة.

وهكذا قضى أثناسيوس بقية حياته في هدوء واستقرار يرعى أبرشيته ويدير أمورها بمحبة وإخلاص. أجل لقد فقدَ مع العمر شيئاً من الحماسة والعنفوان اللذين كان يتصف

www.servant4jesus.co.nr

بهما شبابه ليخلّص الكنيسة حيث كان يفور من غضبه عندما ينتصر الهراطقة وحيث كان يتجاوز الحدود أحياناً. كان المسيح في نظره بخطر فمن يستطيع أن يسكت؟ هل نلومه إذا وحَّد نفسه أحياناً بالأرثوذكسية معتبراً أعداءه الشخصيين أعداءها وأصدقاءه أصدقاءها؟ ألم يمثل في الواقع الرأي المستقيم مدة نصف قرن تقريباً حاملاً على عاتقه الكنيسة بأسرها؟ ألم يصمد هو وحده أمام قوات العالم التي تحالفت جميعها لإسقاطه فحمل راية الحق رغم المشقات؟ ألم يتحمل بصبر وثبات النفي خمس مرات لفرط محبته للمسيح ؟ ...
هكذا انتهت حياة هذا المناضل، بطرية هادئة سالمة: يهتم برعيته، يتابع اتصالاته مع سائر الكنائس، يؤلف الكتب ويمارس النشاطات المختلفة. توفي في ٣ أيار ٣٧٣ وكان قد رسم قبل وفاته خلفه الأسقف بطرس. كان أثناسيوس أول أسقف يكرم إكراماً شعبياً بدون أن يستشهد! ذهب بفرح لمناجاة كلمة الله الذي بذل حياته لخدمته بإخلاص ومحبة. كان قد قضى عشرين سنة في المنفى من ضمن سني أسقفيته الستة والأربعين. توفي أثناسيوس قبل أن يتحقق له النصر النهائي ولكن النصر كان قريباً، إذ فرض الإمبراطور ثيودوسيوس إيمان نيقية في الإمبراطورية كلها سنة ٣٨٠. هكذا توارى من الإسكندرية هذا الرجل الذي اعتبره معاصروه كإنسان ميثولوجي محاط بهالة، كفرعون القرن الرابع... أمّا المسيحيون فوجدوا فيه (ركن الكنيسة) الذي بواسطته دافع الله عن ثباتها وحافظ على الإيمان القويم فيها.

تعليمه

إن مؤلفات أثناسيوس لا تتحلى بالبهاء الذي تتصف به آثار آباء القرن الرابع، من حيث جمال اللغة والأسلوب الرفيع. إلا أنه كان لها الصدى المؤثر في قلوب المسيحيين في كل عصر ومصر. وقد كتب أحد كهنة القرن السادس لتلميذه: (إن وجدت مقطعاً من كتابات أثناسيوس وليس لديك ورق فاكتبه على ثيابك).
نذكر من أهم مؤلفاته كتاب (حياة أنطونيوس الكبير) الذي اعتبر كنموذج لتأليف سير القديسين، وبحثه في (تجسد الكلمة) الذي يعتبر من أبرز المؤلفات العقائدية في عصره، ومقاله (ضد الآريوسيين) الذي يكافح به هذه البدعة ويبرز بوضوح وحدة الآب والابن من حيث الجوهر الخ...
أمّا اللاهوت الذي نستخلصه من كتاباته فهو سهل واضح إذ أن مؤلفها مقتنع ويريد أن يقنع. لا يفتش عن جمال أسلوب ولا عن فن كتابة، يردد ويردد ثم يعود إلى فكرته الأساسية ليبرزها.
فكرة أثناسيوس الأساسية التي أراد أن يبرهن عنها في كل مؤلفاته هي التالية: (تجسد الإله لكي يتألّه الإنسان). بالنسبة له، التجسّد هو أساس المسيحية: أحب الله الإنسان ولم يرد أن يتركه في سقطته، أراد أن يعطيه حياة أبدية لذلك كانت توبة ابن آدم وحدها لا تكفي... المصالحة تقتضي ذبيحة كاملة... تقتضي تنازلاً كلياً... التحاماً وثيقاً بين الطبيعتين الإلهية والإنسانية. هذا ما حققه الله بواسطة كلمته! فكيف يدّعي آريوس أن الكلمة ليس إلهاً؟ إن هذا الهرطوقي لم يعرض مشكلة (اللوغوس) حباً بالمعرفة وبغية الوصول إلى الحقيقة، كل ما يهمه في الأمر هو مصلحته الشخصية التي دفعته إلى تفضيل الظلمة على

النور... لو فتش الكتب حقيقة لوجد الأدلة الكافية التي تثبت ألوهية المسيح وفهم معنى هذه العبارة: (والكلمة صار جسداً وحلّ بيننا). (الكلمة) الذي هو إله، تجسّد وانتصب جسراً بين الخليقة والخالق. أمّا الانطلاقة الأساسية فهي من الله الآب الذي شاء أن يقوم بهذا العمل المعجز. إنه عمل يفوق منطق الفلسفة لأن المسيحية تحقيق للإله (غير المنزه عن المادة) الإله الذي قدّس المادة! الله ازدرى الحواجز التي تفصله عن الخليقة الساقطة واتخذ له جسداً في أحشاء العذراء ولم يدخل في جسد إنسان قديس كما يدعى الآريوسيون... اتخذ جسداً بدون أن ينفصل عن ألوهيته. محبته لنا هي التي جعلته يولد ويظهر بجسد إنساني. لكن هذا التجسّد لم يغيّر من جوهره الإلهي ولم يسئ إلى جلاله:)... بتجسده لم يتغيّر، يقول أثناسيوس، بل بقي على جوهره): محبته لنا هي التي دفعته إلى تقديم نفسه ذبيحة للآب. موت المسيح ضروري لكي نتخلص نحن من لعنة الخطيئة التي شوّهت فينا صورة الله الأصلية. وبنتيجة اتحاد جسده بجسدنا، وموته وانتصاره نموت نحن أيضاً عن الخطيئة وننتصر. وكما أنه بسبب علاقتنا بآدم الأول ورثنا الموت، كذلك بعلاقتنا مع الإنسان النازل من السماء انتصرنا على الموت وورثنا الحياة!

فالخلاص، بالنسبة لأثناسيوس خَلق ثان، ولادة جديدة تجعلنا أبناء الله: (بتجسّده جعلنا أبناء الآب وألّه الإنسان عندما صار هو نفسه إنساناً!). هذه هي النتيجة المحتومة التي يصل إليها. إن المسيح جعلنا أبناء الله وألّهنا إذ أخذ على عاتقه هذا الجسد المائت ليسمو بطبيعة الإنسان الخاطئة إلى الله الآب ويشركه في الطبيعة الإلهية الخالدة.

خلال كل مؤلفات أثناسيوس نشعر بهذا الإيمان العميق الثابت، والتأكيد الهادئ الذي يعطيه ثقة بنفسه وبكل ما يقوله. إنه يريد أن يبرهن عن صحة قوله لمناوئيه، فيقول: (من خاصة الدين الإقناع لا الفرض). فيجمع الإثباتات والأدلة الواضحة المدققة ليبزّ أعداءه ويظهر حقيقة ما يعرضه.

أمّا أسلوبه فبسيط، منسق، منطقي، منظم، فيه شيء من البلاغة وإن ابتعد عن الزخرفة.

إنه رجل العقيدة، يشرح الكتاب المقدس ويتخذ منه الأدلة التي تساعده على إيضاح فكرته.

لا يتمادى في التأمل اللاهوتي، إنه رجل عمل يتحلّى باتزان عقلي عميق، وكل معاني المسيحية الأصلية متملكة في أعماقه! ولئن وجدنا عنده أحياناً شيئاً من الاحتقار للهراطقة فذلك يعود إلى اهتمامه بالعقائد لا بالأشخاص فهو يحارب كل إنسان لا يعترف بحقيقة المسيح! فكل من لا يؤمن أن المسيح هو إله متجسد حقق خلاصنا ليدخلنا إلى الحياة الأبدية، يثير غضبه ويستدعي المهاجمة! إن كان المسيح ليس بإله حق يستمد ألوهيته من الله فكيف يستطيع أن يؤلّه ويخلّص جنس البشرية؟ فمن لا يشعر في صميمه بحقيقة الكلمة ويقبلها كقضية ثابتة علّمتنا إياها الكنيسة بواسطة تقليدها وحياتها جاعلة إياها حاضرة في أسرارها المقدسة، بأعجوبة مستمرة، هذا الإنسان لا يستطيع أثناسيوس أن يحسبه إلا هرطوقياً شاذاً عن حياة الشركة في الكنيسة.

فالنتيجة المنطقية من تعليم أثناسيوس هي أن المسيحية تهدف إلى التقشف الذي يطهر النفس ويسمو بها إلى الحياة في إطار الثالوث الأقدس. فإذا اتحدنا بالمسيح وصلنا إلى نقاوة القلب و إذا ما تقشفنا وصلنا إلى معرفة الله و دخلنا في محبته. الثالوث حقيقة واقعية حاضرة يحسّه أثناسيوس كحقيقة حيّة لا كأفكار لاهوتية. الثالوث يحرك كيانه

ويضرم داخله. وهو من أوائل الآباء الذين توسّعوا في الدفاع، إضافة عن ألوهية الابن، عن ألوهية الروح القدس.
لذلك يشجع أثناسيوس حياة النسك والرهبنة وفي كتابه (عن العذرية)، يعلّم أن العذرية تهدف إلى تقديس النفس والسمو بها، إلى الالتقاء مع الله: فالتنسك هو طريق قداسة، طريق تقدم روحي. إن كتاباته ليست بأطروحة لاهوتية و إنما هي تعبير عن ارتفاع النفس إلى الخالق. فأثناسيوس هو إذن الأسقف المتقشف الذي يسهر على أبنائه ويعلّمهم حقيقة الدين بوضوح ومحبة.
إن الآباء الذين سبقوا أثناسيوس كانوا إما شهداء وإما فلاسفة. فالشهداء بالدم كتبوا وللعشق الإلهي تاقوا، وأمّا الفلاسفة فاستندوا إلى العقل والمنطق ليعرضوا الإيمان. أمّا أثناسيوس فلا ينتمي إلى مدرسة فلسفية. وطنه الروحي هو الكنيسة. شخصيته تكوّنت في مكاتب الإدارة الأسقفية. حرّر أثناسيوس اللاهوت من أفلاطون وفلسفته وبناه على تجسد المسيح. إنه ذلك الإنسان الذي أعطى للتجسد أهميته في عصر ابتدأت فيه الهرطقات تتسلل إلى الكنيسة بطريقة شيطانية لترمي الفساد فيها.
أجل، إنه لوجه غريب هذا الرجل الذي برز في بداية القرن الرابع! إنه رجل الكفاح الدائم والمقاومة المستمرة. متصلّب الرأي، حذق، نشيط، قد يكون سلساً في الأمور الثانوية، لكنه في الأمور الأساسية والقضايا الجوهرية حازم لا يتزعزع. مثابرته لا تقف عند نجاح جزئي وهمته لا تخمد عند فشل نهائي! تطور الكنيسة فيما بعد ارتكز على نشاط هذا الرجل الوحيد، على الصراع العنيف الذي طبع حياته وعلى الانتصار الذي تحقق له بعد وفاته. إن بقيت الكنيسة سائرة على مقررات مجمع نيقية فالفضل يعود لهذا القديس الذي علم ما للتجسد وألوهية الكلمة من أهمية في المسيحية وظفرها. قدّم حياته ذبيحة لكي تتأصل هذه الفكرة في أذهان المسيحيين عبر الأجيال... إنه رجل البأس والشجاعة الذي اتخذ موقف الجبابرة في حين كانت الكنيسة بحاجة إلى الأبطال.
عرف أثناسيوس مرارة الاضطهاد وعرف أيضاً مجد الكنيسة في أيام السلم وحماية الدولة. لكن الأمجاد لم تسكره فبقي بصيراً مدركاً حتى النهاية. حرّر الكنيسة من نير الأباطرة وشق الطريق التي ينبغي أن تسير الكنيسة عليها. لولاه لوقعت الكنيسة الناشئة بين أيدي الآريوسيين ولولا صموده أمام السلطات الزمنية لتحطمت الكنيسة تحطيماً! إنه بطل نيقية! إنه رمز للقوة والمثابرة والشهامة.

الفصل الثانى : المزيد عن شخصية اثناسيوس

علاقته الشخصية بالمسيح

كان قلب أثناسيوس يجيش بمحبة شديدة للمسيح وكان يعتبر مثل بولس الرسول أن محبة المسيح هي علامة ومفتاح الإيمان الصحيح، وأنه بدون هذا الحب لا يمكن أن نبلغ الإيمان الحق. لذلك كتب في نهاية رسالته للرهبان: (إن كان أحد لا يحب ربنا يسوع المسيح، كما يقول الرسول (١كو١٦:٢٢)، فليكن أناثيما)، وفي نهاية رسالته إلى أدلفيوس: (سلم على جميع الذين يحبون ربنا يسوع المسيح). وكان يشير عادة إلى الآريوسيين (بأعداء

المسيح). وكان أثناسيوس يوجّه دوماً نظره إلى المسيح يسعى أن يتمثل به في كل أعماله: (لم يكتف المخلّص بأن يعلّم الفضيلة بل قد مارسها هو أيضاً بنفسه حتى إذا ما سمعناه ونظرنا إليه وجدنا فيه المثال الحي العملي لما يجب أن نفعله. فنحن نسمعه يقول: (تعلّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب) (متى١١:٢٩). فلا يمكن أن نجد تعليماً عن الفضيلة أكمل من الذي قدمه المخلّص بشخصه في حياته الخاصة. فنحن نجد فيه المثال الأعلى في الاحتمال ومحبة البشر والصلاح والقوة والرحمة والبر. فالذي يتأمل حياة الرب البشرية لا يعوزه شيء من الفضيلة. وقد أدرك بولس ذلك جيداً إذ قال: (كونوا متمثلين بي كما أني أنا أيضاً بالمسيح) (١كو١١:١). إن مشرّعي الأمم لا يعرفون إلا أن يضعوا التشريعات فقط. وأمّا الرب الذي هو سيد الكون كله، فبسبب عنايته بخليقته لم يكتف بأن يضع لها النواميس بل قدّم نفسه أيضاً مثالاً لها حتى يتعلم منه طالبو الفضيلة كيف ينبغي أن يسلكوا) (الرسالة إلى مرسلينوس عن المزامير١٣).

تمسكه بمجاري النعمة

آ- الإفخارستيا

يتبيّن من أقواله العديدة عن الإفخارستيا وسر الشكر أنه كان يعتبر المناولة ركناً أساسياً في حياته الشخصية وحياة المؤمنين وكان يدعو باستمرار أبناءه الروحيين إلى الاقتراب من السر الإلهي، هذا (العشاء العظيم الذي يفوق العالم) (رسالة فصحية ٤٠) لكي تكون لهم الحياة.

ب- الكتاب المقدس

لقد تربّى أثناسيوس منذ نعمة أظفاره على الهذيذ في الكتاب المقدس بعهديه وظلت هذه القراءة رغبته المفضلة كل أيام حياته، كما يقول بنفسه لصديقه مرسلينوس: (عرفت من حامل الرسالة أنك تصرف وقتك في قراءة الكتاب المقدس كله ولا سيما سفر المزامير. وإني أمتدحك لأني أنا أيضاً مثلك أجد لذّتي العظمى في قراءة المزامير بل والكتاب كله أيضاً) (الرسالة إلى مرسلينوس ١).

لذلك كان يدعو رعيته باستمرار لقراءة الكتاب المقدس، قائلاً: (إن عبيد الرب الصالحين والأمناء الذين صاروا (متعلمين في ملكوت السموات... يخرجون من كنوزهم كل جديد وقديم) (متى١٣:٥٢)، الذين يلهجون بكلام الله (حين يجلسون في البيت وحين يمشون في الطريق وحين ينامون وحين يقومون) (تث٦:٧) يصيرون ثابتين في الإيمان، فرحين في الرجاء، حارين في الروح... فبالتأمل في الوصية يثبتون أمام ما يقع عليهم من الضيق ويُرضون الله ويقولون بثقة (ضيق وشدة أدركاني ولكن وصاياك هي درسي) (مز١١٩:٤٣)... إذاً فتأمل الوصية ضروري يا أحبائي مع اللهج المستمر بالفضيلة (لكي يكون إنسان الله كاملاً متأهباً لكل عمل صالح) (٢تي ٣:١٧). فبهذه الأمور نربح موعد الحياة الأبدية كما كتب بولس إلى تيموثاوس داعياً التأمل رياضة روحية قائلاً: (روِّض نفسك على التقوى لأن الرياضة الجسدية نافعة لقليل وأما التقوى فنافعة لكل شيء إذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة) (١تي ٤:٧ و٨) (الرسالة إلى مرسلينوس ٣٣).

القديس اثناسيوس الكبير

تمسّكه الشديد بالتقليد الشريف

نشأ أثناسيوس في الكنيسة محافظاً على تقاليدها مفتخراً أنه يفهم الأسفار المقدسة (فهماً كنسياً) أي فهماً يتوافق مع التقليد الشريف، أي تقليد الكنيسة الأولى المسلم إليها من الرب نفسه. لذلك كان يهاجم الهراطقة لأنهم لم يحافظوا على تعاليم الرسل والآباء الأقدمين، كما يقول في بعض رسائله الفصحية وكتاباته الأخرى:

- (إن جميع الذين اخترعوا الهرطقات الخبيثة، وإن كانوا يستشهدون بالأسفار المقدسة إلا أنهم لا يتمسكون بالآراء (التفاسير) التي سلمها القديسون بل يعتبرونها مجرد تقاليد للناس، ولذلك يضلون إذ لا يعرفونها بالحق ولا يدركون قوتها، ولهذا السبب يمدح بولس أهل كورنثوس لأن آراءهم كانت موافقة لآرائه (١كو١١:٢)) (رسالة فصحية٢:٦).
- (إن الرسول يمدح أهل كورنثوس قائلاً: (فأمدحكم أيها الإخوة لأنكم تذكرونني في كل شيء وتحفظون التقاليد كما سلّمتها إليكم) (١كو١١:٢). وأمّا هؤلاء (الآريوسيون) الذين يحتقرون آراء الذين سبقوهم يليق بهم حقاً أن يقولوا بلا حياء عكس ذلك لرعاياهم أي (إننا نمدحكم لأنكم لا تذكرون الآباء ونزيدكم مدحاً حينما تحتقرون تقاليدهم) (عن المجامع ١٤).
- (هذا هو جنون وشطط هؤلاء الناس – بحسب ما وصفناه – وأمّا إيماننا نحن فمستقيم ونابع من تعليم الرسل وتقليد الآباء ومشهود له من العهدين الجديد والقديم كليهما) (رسالة٦٠:٦).

اتصاله المستمر بالأوساط الرهبانية

كما رأينا في القسم الأول من هذا الكتاب المتعلق بحياة القديس أثناسيوس، تعرّف أثناسيوس على كبار مؤسسي الرهبنة أي القديس أنطونيوس الكبير والقديس باخوميوس وظل طيلة حياته مستمراً على الاتصال بالأوساط الرهبانية في صحراء مصر إن كان بواسطة الجولات الرعائية أو المراسلة. وقد لقي من هذه الأوساط المساعدة والعون في جهاده ضد الآريوسيين وجميع محاربيه. هذه الثقة وهذا الاتصال أثرا بدون شك على روحانيته خاصة في المجالات التالية:

آ- تقواه وتقشف حياته

قبيل انتخابه للكرسي الإسكندري أجمع الشعب كله (أنه مسيحي تقي وواحد من النساك) (الدفاع ضد الآريوسيين ٦). وكان يتميّز أثناسيوس بالفعل بالتقوى والمثابرة على الصلاة، إذ نسمعه يقول في عدد من كتاباته أنه بصورة عادية يترأس خدمة السحر طيلة الليل استعداداً لإقامة القداس الإلهي في اليوم التالي {الدفاع لدى قسطنطين٢٥ وتاريخ الآريوسيين إلى الرهبان٨١}. وكذلك نستنتج من إحدى رسائله إلى سيرابيون أنه كان يصلّي قبل الكتابة والتأليف طالباً الإلهام الإلهي: (وبينما كنت أفكر بهذه الأمور بدا لي أن المعنى المتخفي في هذه الكلمات ذو عمق كبير، فبدأت أولاً بالصلاة الكثيرة إلى الرب... ثم عدت أتأملّ... لعلّي ألتمس منه معنى هذه الكلمات). {إلى سيرابيون ٤:١٤}.

ب- لا حقيقة بدون تقوى

www.servant4jesus.co.nr

القديس اثناسيوس الكبير

يقول في إحدى رسائله الفصحية: (إن العقيدة والتقوى مرتبطين كمثل أختين: فالذي يؤمن بالله يصير تقياً وكذلك الإنسان التقي يكون له إيمان. فالذي يصنع الإثم يضل أيضاً بلا شك من جهة الإيمان والذي يترك التقوى يفقد أيضاً الإيمان القويم) {رسالة فصحية١١: ٩}.
وبهذا التعليم يرتبط أثناسيوس بهذا الخط الذهبي الذي ابتدأ منذ أول بزوغ الكنيسة واستمر عبر العصور: إنه بدون قداسة وحياة روحية ومحبة لا معرفة للحقيقة ولا فهم لما أعلنه الله للقديسين. (لنحب بعضنا بعضاً لكي بعزم واحد نعترف مقرّين بآب وابن وروح قدس...) كما نقول في كل قداس إلهي. وكما قال العديد من الآباء: (اللاهوتي هو من يصلّي) والقديس غريغوريوس النازينزي: (من المهم أن نتكلم عن الله، لكن الأهم أن نتطهر من أجل الله)، هكذا يقول أيضاً أثناسيوس: (إن نقاوة النفس تؤهلها لتتأمل الله في داخلها) {ضد الوثنيين ٢: ٤}.
ج- لا عقيدة مجرّدة عن التصوّف والحياة الروحية الواقعية
وقد أكد كبار اللاهوتيين براعة أثناسيوس في إظهار الجانب الروحي لكل عقيدة وفي وصل هذه العقيدة بالحياة اليومية (لإحياء النفوس وإنعاشها ودفعها نحو الخير). (إنه كرّس حياته من أجل... الحياة المسيحية المعاشة بكل عمقها. فأثناسيوس قبل أن يصير اللاهوتي البارع... وقبل أن يكون الأسقف الذائع الصيت... كان إنساناً يريد أن يحيا الحياة الإلهية التي أحضرها الكلمة المتجسد إلى عالم البشر وذلك بالسلوك في الطريق النسكي...) {راجع: **L.Bouyer, L'Incarnation et I'Eglise, p.25- 26**}. بذلك هو ممثل رائع للاّهوت الشرقي الذي لا يرتكز على العقل وحده بل يفتش أيضاً عن براهينه في اختبارات القديسين العلمية، كما يقول في (تجسد الكلمة) (٤٨- ١ و٢): (على أن هذه البراهين التي قدمناها لا تستند إلى مجرد حجج كلامية ولكن هناك اختبارات عملية تشهد لصحتها. فليذهب من أراد ويعاين دليل العفة في عذارى المسيح والشبان الذين يمارسون حياة العفة المقدسة).

إدراكه الواضح لحدود العقل البشري في معرفة الإلهيات

يقول في رسالته الأولى إلى سيرابيون:
(من يريد أن يتفحص الأمور أكثر من اللازم فليسمع القائل: (لا تكن حكيماً بزيادة لئلا تجّرب نفسك) (الجامعة ٧: ١٦). فإن ما سلّم بالإيمان لا ينبغي أن يفحص بالحكمة البشرية، بل أن يقبل بخبر الإيمان) (١: ١٧). وأيضاً: (إن شرح الإلهيات لا يمكن أن يكون بالبراهين الكلامية بل بالإيمان وبأفكار التقوى الورعة) (١: ٢٠).
وفي رسالته إلى الأنطاكيين يحذرهم على ميلهم المفرط للكلام والسفسطة قائلاً: (لا تتفارقوا بشأن كلمات لا فائدة لها ولا تتخاصموا بخصوص العبارات المشار إليها، بل اتفقوا في مشاعر التقوى... واعتبروا فوق كل شيء قيمة ذلك السلام الذي في حدود صحة الإيمان. لعل الله يترأف علينا ويوحّد ما قد انقسم فلا نكون سوى رعية واحدة لراع واحد الذي هو ربنا يسوع المسيح نفسه...) {الطومس إلى أنطاكية ٨}.

إدراكه أن علاقتنا بالمسيح هي علاقة كيانية

في هذا الإدراك يكمن محور تعليم أثناسيوس: لأنه يوجد اتصال كياني عميق بين المسيح المتجسد والجنس البشري فعملية الفداء تخص كل إنسان كيانياً. تكثر هنا الاستشهادات من كتابات القديس أثناسيوس إذ يعود في كل منها إلى هذه النقطة الأساسية. فلنسمع بعضها: (لما اغتسل الرب في الأردن كإنسان، كنّا نحن الذين فيه وبواسطته نغتسل، وحينما اقتبل الروح كنّا بواسطته مقتبلين هذا الروح) {ضد الآريوسيين ١:٤٧}. (فالذي يقدّس كل شيء يقول للآب: من أجلهم أقدّس ذاتي (يو١٧:١٩) ليس بمعنى أن (الكلمة) يمكن أن يزداد في القداسة بل بمعنى أنه هو نفسه يقدسنا نحن جميعاً في ذاته) {ضد الآريوسيين ١:٤١}. (كما أننا بموته قد متنا جميعاً في المسيح، هكذا في المسيح عينه نرتفع نحن أيضاً ونقوم من الموت ونصعد إلى السموات) {ضد الآريوسيين ١:٤١}. فكل أحداث حياة الرب تصبح إذاً أحداثاً تخصّنا في الصميم. لذلك يحتمل الرب زلاتنا ويرفعها عنّا ويغسلنا منها على الصليب ويتغلب باسمنا على الموت والشرير. (لو أدرك أعداء المسيح (الآريوسيون) ذلك وتمسكوا بهذه (النظرة الكنائسية) كأنها مرساة للإيمان لما ضلّوا أبداً من جهة الإيمان) {ضد الآريوسيين ٣:٥٨}. المسيح فينا ونحن فيه، الإنجيل ليس مجموعة وصايا وتعاليم بل حامل لشخص المسيح. والحياة المسيحية ليست في اتباع عدد من المناقب بل (بلبس المسيح) كما ننشد في الكنيسة: (أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح لبستم)، لأنه (لو كان المسيح مجرد معلّم يعلمنا من الخارج لكانت الخطيئة لا تزال تتسلط على الجسد كما كانت من قبل. لكن الرسول يعارض مثل هذه الأفكار قائلاً: (نحن عمله مخلوقين في المسيح يسوع) (أف ٢:١٠). فإن كنّا في المسيح قد خُلقنا فليس إذاً هو في ذاته المخلوق بل نحن المخلوقون فيه) {ضد الآريوسيين ٢:٥٦}، و (قد تألهنا بالكلمة لأننا صرنا منضمين إليه بواسطة جسده وبذلك ورثنا الحياة الأبدية) {ضد الآريوسيين ٣:٣٤}.

وهذا يوصلنا إلى مفهوم (التأله) عند أثناسيوس، هذا المفهوم الذي ظهر من قبله عند القديس إيريناوس وعمّ من بعده كل الفكر الآبائي. (فالكلمة صار جسداً لكي يجعل الإنسان قادراً أن يتقبل اللاهوت) {ضد الآريوسيين ٢:٥٩} لكي يصبح الإنسان إلهاً بالنعمة من خلال اتحاده بالله. هذا المفهوم (للتأله) (Theosis) يشكل محور تفكير القديس أثناسيوس اللاهوتي وأصبح من بعده أحد ركائز الفكر اللاهوتي في الكنيسة الشرقية {راجع بما يختص بهذا الموضوع كتاب: (الكنيسة الأرثوذكسية: إيمان وعقيدة) لتيموثي وير، سلسلة (تعرف إلى كنيستك) رقم ١١، منشورات النور}.

حرصه على وحدة الكنيسة

كان يشعر أثناسيوس منذ شبابه شعوراً شديداً بحقيقة الكنيسة كجسد للمسيح وبضرورة الحفاظ على وحدتها ومحاربة كل من يتجرأ على إدخال روح الشقاق إليها. ينطلق أثناسيوس في مفهومه هذا من سر الشكر الذي هو مصدر وحدة الكنيسة ومحورها. (فإننا نحن جميعاً إذ نتناول من (الرب) الواحد نصير جسداً واحداً إذ يكون لنا في نفوسنا الرب الواحد) {ضد الآريوسيين ٣:٢٢}. أمّا ما يثبت هذه الوحدة فهو الروح القدس: (إننا

بالروح نصير في الله وبالتالي نصير متحدين بعضنا مع بعض في الله) {ضد الآريوسيين ٣:٢٥}. وقد ملأه هذا اليقين بوحدة أبناء شعب الله الأساسية بغيرة لا توصف للدفاع عنها، مما يفسّر الكثير من تصرفاته في خضم المعارك التي ما زال طيلة حياته يخوضها دفاعاً عن الإيمان. ويقول بهذا الصدد الأب العالم لويس بوايّه في وصفه لشخصية أثناسيوس في كتابه عنه المذكور سابقاً: (إن أثناسيوس في كل كتاباته الجدلية والدفاعية يُظهر سخطه بشدة على خصومه، لكنه في ثورته عليهم يخلو تماماً من مشاعر البغضة أو الحقد. إنه يندفع بشهامة ليظهر استياءه الشديد، غير أنه في ذلك أيضاً لا يتخلى تماماً عن وداعته الطبيعية، بل سرعان ما تعود وتكون هي السائدة. إنه يفضح آريوس ويوسابيوس وكونستانثوس ويصفهم بما لا يشرفهم، غير أننا لا نراه قط يطأهم بأقدامه، فنحن لا نجد في كتاباته أثراً لعداوة شخصية تسوِّد صفحاتها).

والسبب في ذلك يرجع إلى أن أثناسيوس لم يكن يقاوم عدواً شخصياً بل أعداء الإيمان وكان على استعداد في أي وقت يرجعون إلى الحق أن يقبلهم بسعة صدر. وقد أظهر هذا التسامح في كل علاقاته بسعة صدر. وقد أظهر هذا التسامح في كل علاقاته مع الهراطقة التائبين وسعى دوماً – شرط عدم المساومة على صحة الإيمان – أن يقرِّب القلوب كما ظهر في كلامه إلى الأنطاكيين الذي ذكرناه سابقاً. كل جهاده الكنسي، يقول الأب متى المسكين، على مدى هذه السنين الطويلة، كان يؤول إلى غاية واحدة: (أن يجمع في وحدانية الإيمان كل الذين صاروا أعضاء في جسد المسيح)، (لعلّ الله يترأف علينا ويوحّد ما قد انقسم، فلا يكون بعد سوى رعية واحدة لراع واحد هو ربنا يسوع المسيح نفسه) {الطومس إلى أنطاكية ٨}.

الفصل الثالث : منهجه اللاهوتى

منهجه اللاهوتي

آ- المنهج العام

* مؤلفاته تحمل صبغة الدفاع عن الإيمان (فيما عدا الكتابان اللذان ألّفهما قبل اندلاع النزاع الآريوسي – وكان ذلك في مطلع حياته، وهما (ضد الوثنيين) و (تجسد الكلمة).

* يتميّز أسلوب أثناسيوس

عن باسيليوس وغريغوريوس ويوسابيوس: بأصالة تعابيره غير المنمقة،

عن ترتليانوس: بسلاسة أسلوبه وسهولته،

عن ايرونيموس: لكونه واقعياً، خالياً من المبالغة،

عن هيلاريون: لكونه تلقائياً غير متكلف.

عن أغسطينوس ويوحنا ذهبي الفم: لكونه بسيطاً غير مشحوناً بالاستطرادات والمعاني الفرعية الكثيرة.

* كان أثناسيوس يكتب ليشرح الحق، والحق فقط، تاركاً الحق يؤثر بنفسه على السامع والقارئ. لذا كان يعمد إلى التكرار، عن وعي.

* اللغة اليونانية التي كتب بها أثناسيوس:

القديس اثناسيوس الكبير

إن أثناسيوس صعيدي قبطي صميم، إلا أنه يُعتبر أعظم من عبَّر باللغة اليونانية عن فكر عصره وعن مضمون لاهوت القرن الرابع، علماً أنه توجد في كتابات أثناسيوس ألفاظ لاتينية كثيرة مكتوبة بحروف يونانية، مما يكشف عن دراية أثناسيوس وميله الطبيعي إلى اللاتينية.

ب- الاتجاهات المدرسية للاهوت أثناسيوس

* ورث أثناسيوس لاهوت مدرسة الإسكندرية ومنهجها في البحث والشرح والتحليل.

* لم يأخذ مبادئ فلاسفة المدرسة اللاهوتية على علاّتها. ففي مواضع كثيرة ينتقد ويقاوم بشدة أفكار أوريجانس.

* وبالرغم من أنه استقى أبحاثه أولاً من علماء مدرسة الإسكندرية السابقين، لكنه بحاسة رسولية لا تخطئ كان يقارن بين هذه الاجتهادات الفلسفية وبين الأصول الآبائية الأخرى المسلّمة من الرسل، ويعطي تعليماً يتناسب مع روح الإنجيل والتقليد.

* أتت مؤلفات القديس أثناسيوس الأولى خالية من أية لمسة أوريجانية من قريب أو بعيد. أمّا كتاباته اللاحقة وتعبيراته ودقائق شرحه للإيمان الأرثوذكسي، فأتت ملتزمة بمقررات مجمع نيقية. وقد كان لاهوت مجمع نيقية يجمع بين دقة التحليل الغربي مع أصالة التقليد اللاهوتي الشرقي، القائم على المعارضة الصريحة والشديدة للاتجاه الأوريجاني بوجه عام.

* لا يصعب على أي دارس صبور أو لاهوتي مفتوح البصيرة أن يستخرج من مجموع كتابات أثناسيوس منهجاً كاملاً لاهوتياً.

* (محبة المسيح فوق أي شيء آخر) هي مفتاح فهم حياة أثناسيوس وكتاباته، ومنهجه اللاهوتي يتمركز حول شخص المسيح دائماً. السمة التي ميَّزت لاهوت أثناسيوس هي أنه صاحب (لاهوت الخلاص). فلم يكن أثناسيوس يترك شيئاً قط يعلو فوق الحقيقة الأساسية وهي (الفداء) جاعلاً من هذه الحقيقة حياة شخصية قائمة دائماً (في شخص الفادي). وبذلك حوَّل أثناسيوس نظرة الفلاسفة من (لوغوس) الفلسفة إلى (لوغوس) إنجيل يوحنا، ومن (إله الفلاسفة) إلى (الله المستعلن في يسوع المسيح)، لكي يصالح به العالم لنفسه.

كتابات القديس أثناسيوس

{ هذه اللائحة مأخوذة من كتاب الأب متى المسكين، (القديس أثناسيوس الرسولي)، ١٩٨١، ص٦٧٧ إلى ٦٨٠ }

هذه لائحة شاملة لكتاباته مرتبة زمنياً، والرقم يشير إلى تاريخ كتابتها:

(١) سنة ٣١٨ كتابان: ضد الوثنيين (Contra Gentes). تجسد الكلمة (De Incarnatione Verbi Dei).

(٢) سنة ٣٢١- ٣٢٢ منشور عزل آريوس (Deposito Arii).

(٣) سنة ٣٢٨- ٣٧٣ الرسائل الفصحية {الموجود منها ٣٥ رسالة}.

(٤) سنة ٣٢٨- ٣٣٥ شرح الإيمان (Expositio Fidei).

(٥) سنة ٣٣٥ على الآية (كل شيء دفع إليَّ من أبي) (لو١٠:٢٢، متى١١:٢٧) (In Illud Omnia).

www.servant4jesus.co.nr

(٦) سنة ٣٣٩ خطاب دوري لأساقفة المسكونة (Encyclica ad Episcopos Ecclesiae Catholicae).
(٧) سنة ٣٤٣ رسالتان من مجمع سرديقا (حالياً صوفيا عاصمة بلغاريا في البلقان).
(٨) سنة ٣٥١ احتجاج ضد الآريوسيين (Apologia Contra Arianos).
(٩) سنة ٣٥٢ دفاع عن مجمع نيقية (De Decretis Concilii Nicaeni).
ومذيَّل برسالة أوسابيوس القيصري لرعيته أرسلها سنة ٣٢٥.
(١٠) سنة ٣٥٢ شرح رأي الباب ديونيسيوس الكبير بطريرك الإسكندرية (De Sententia Dionysii).
(١١) سنة ٣٥٠- ٣٥٣ رسالة إلى أنبا آمون من آباء نتريا (Ad Amun).
(١٢) سنة ٣٥٤ رسالة إلى داركونتيوس أسقف هرموبوليس بارفا (دمنهور حالياً) (Ad Dracontium).
(١٣) سنة ٣٥٦- ٣٦٢ حياة القديس أنطونيوس (Vita Antonii).
(١٤) سنة ٣٥٦ رسالة إلى أساقفة مصر وليبيا (Epistola ad Episcop Aegypti et Lybyae).
(١٥) سنة ٣٥٦- ٣٥٧ الدفاع المقدم للإمبراطور كونستانثوس (Apologia ad constantium).
(١٦) سنة ٣٥٧ دفاع عن هروبه (Apologia de Fuga).
(١٧) سنة ٣٥٨ رسالتان إلى الرهبان (Ad monachos).
(١٨) سنة ٣٥٨ تاريخ الآريوسية (Historia Arianorum ad Monachos).
(١٩) سنة ٣٥٨ أربع مقالات ضد الآريوسيين (Orationes ad Arianos IV).
{المقالة الرابعة منسوبة إليه وهي غالباً ليست من تأليفه (الناشر)}.
(٢٠) سنة ٣٥٩ رسالتان إلى لوسيفر أسقف كالاريس في سردينيا والذي نفي إلى صعيد مصر (Ad Luciforum).
(٢١) سنة ٣٥٩ أربع رسائل إلى سيرابيون طمويه (تمي الأمديد حالياً) في دلتا مصر (Ad Serapionem Orationes IV).
(٢٢) سنة ٣٥٩- ٣٦٠ على مجمع أريميني ومجمع سلوكية (De Synodis Arimini et Seleuciae Celebratis).
(٢٣) سنة ٣٦٢ خطاب مجمعي إلى كنيسة أنطاكية (Tomus ad Antiochenos).
(٢٤) سنة ٣٦٢ رسالة إلى روفينيانوس (Ad Rufinianum).
(٢٥) سنة ٣٦٣- ٣٦٤ رسالة إلى الإمبراطور جوفيان (Ad Juvianum).
(٢٦) سنة ٣٦٤ رسالتان قصيرتان إلى الأب أورسيسيوس رئيس دير طبانسين في صعيد مصر (Ad Orsisium).
(٢٧) سنة ٣٦٩ خطاب مجمعي إلى أساقفة أفريقيا من أساقفة مصر وليبيا ومعهم أثناسيوس (Ad Afros Epistola Synodica).
(٢٨) سنة ٣٦٩ أيضاً رسالتان الأولى إلى أبكتاتوس أسقف كورنثوس (Ad Adelphium) والثانية إلى مكسيموس فيلسوف كلبي اسكندراني (Ad Maximus).
(٢٩) سنة ٣٦٣- ٣٧٢ رسالة إلى ديودورس أسقف صور (Ad Diodorus).

(٣٠) سنة ٣٧٢ رسالة إلى يوحنا وأنطيوخس (الذي صار أسقفاً فيما بعد على بتولمايس) (Ad Joann . Et Antiochen). سنة ٣٧٢ أيضاً: رسالة إلى باللّيديوس كاهن مقيم في قيصرية فلسطين (Ad Palladius).
(٣١) سنة ٣٧٢ كتابان ضد أتباع أبولّيناريوس (Contra Apollinarium).

أما باقي كتاباته التي لم يتوصل العلماء بعد إلى تحديد زمن كتاباتها فيمكن تقسيمها إلى مجموعات هكذا:

أولاً- عقائدية وتعليمية:
(٣٢) في الثالوث والروح القدس (De Trinitate et Spiritu Sancto).
وهو معروف في ترجمته اللاتينية فقط. ولكن واضح أنها مأخوذة عن أصل يوناني، ويرجح البعض كتاباته عام ٣٦٥ {كما يرجح البعض الآخر أنها ليست من تأليف أثناسيوس (الناشر)}.
(٣٣) التجسد وضد الآريوسيين (De Incarnatione et Contra Arianos).
في حقيقته هو إثبات ألوهية المسيح من الكتاب المقدس أساساً، ثم الاستطراد إلى الروح القدس. ولم يُتفق على صحة نسبته إلى أثناسيوس.
(٣٤) العظة الكبرى عن الإيمان (The Sermo Maior de Fide).
وعنه يقول الأسقف نيومان، العالم الآبائي الإنجليزي في القرن الماضي، أنه تجميع من أعمال أثناسيوس ولذلك لم يعترف العلماء بنسبته الأصلية لأثناسيوس.
(٣٥) مقتطفات ضد بولس الساموساطي (بطريرك إنطاكية في القرن الثالث الذي حكمت المجامع بتجريده وعزله لهرطقته) وقد اتفق على صحة نسبتها إلى أثناسيوس.
وباقي المقتطفات التي ضد مكدونيوس (المسمى عدو الروح القدس) ونوفاتيان وقد صعب على العلماء تقرير صحة نسبتها إليه.
(٣٦) تفسير الرموز (Interpretatio Symboli) وقد ثبت أنه تعديل لقانون المعمّدين الذي وضعه إبيفانيوس أسقف قبرص المصري سنة ٣٧٢ ولذلك يحتمل أن أصله من الإسكندرية لذلك يرجّح العلماء أن واضعه هو أنبا بطرس الثاني أو ثيئوفيلس من بطاركة الإسكندرية سنة ٣٨٠.
(٣٧) تجسد كلمة الله (De Incarnatione Verbi Dei) المنسوب إليه خطأً، وهو كتاب وضعه تلاميذة أبوليناريوس اللاذقاني صاحب الهرطقة المنسوبة إليه، وقد استخدمه القديس كيرلس الكبير في عبارته المشهورة (طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد). معتقداً أن هذا التعبير هو لاثناسيوس، ولكنه لم يستخدمه كما أراد الأبوليناريين بل حوّل السم إلى دواء. فشرح هذه الجملة شرحاً أرثوذكسياً تجلى في رسالة المصالحة بينه وبين يوحنا الأنطاكي.
ثانياً- تفسيرية:
(٣٨) إلى مارسللينوس على تفسير المزامير (Psalmorun Ad Marcellinum de Interpretione)، وهو مقال تقوي عميق عن استعمال المزامير في الصلاة، ويؤكد شيوع استعمالها لأنها تجمع في إيجاز روح أسفار الكتاب المقدس كله مع تطبيقها

www.servant4jesus.co.nr

للاحتياجات الروحية لكل نفس تحت مختلف الظروف. ويقول أن ترتيل المزامير ليس بقصد تأثيرها الموسيقي بل ليتمكن المصلي من التأمل الهادئ في معانيها.
(٣٩) شروحات على المزامير (Expositiones in Psalmos) مع مقدمة يشير فيها إلى ترتيب المزامير العبرية وتقسيمها إلى ٥ كتب، ويُرجع عدم تنظيمها منطقياً إلى الاعتقاد أنه خلال سبي الشعب اليهودي جَمَعَ أحد الأنبياء بقدر استطاعته الأسفار المقدسة التي فقدت ترتيبها بسبب إهمال اليهود. أمّا الأجزاء التي فيها اللعنات فهي تنطبق على أعدائنا الروحيين.
وفي هذه الشروحات يتقدم كل مزمور تمهيد يبيّن موضوعه العام. وكذلك يرجع أثناسيوس عَرَضاً إلى الترجمات اليونانية الأخرى مثل ترجمة أكويلا وثيودوشن وسيماخوس.
(٤٠) أجزاء متناثرة على إنجيل متى (Fragmenta in Evang . Mathaiei)، وفيها ملاحظة هامة عن الإفخارستيا (على متى ٧:٦). ويبدو أن هذه المتفرقات مأخوذة من مواعظ وتفاسير لأثناسيوس ومجمعة في أقوال مستقلة.
(٤١) متفرقات على إنجيل لوقا (Fragmenta in Lucam). وفي نهايتها يشرح أثناسيوس حدود المعونة التي تقدمها الصلاة على المنتقلين.
ثالثاً- النسكيات:
(٤٢) في البتولية (De Virgintate) ويؤكد البعض صحة نسبته إليه والبعض الآخر ينفي ذلك.
رابعاً- كتابات ضائعة:
وهي ما جاء ذكرها في كتاباته، أو ذكرها المؤرخون القريبون من عصره مثل المؤرخ سقراط. مثال ذلك خطاب حرره لتعزية العذارى اللواتي أساء معاملتهن جاورجيوس الوالي الآريوسي، وجاء عنه في تاريخ الكنيسة لثيودوريتوس، ويقتبس منه أن الأريوسيين لم يسمحوا للعذارى بالدفن في سلام بل (كانوا جالسين حول المقابر كالأبالسة ليمنعوهن).
وأهم أعماله الضائعة رسائله الفصحية الناقصة ومراسلاته مع القديس باسيليوس الكبير.
وكان الاهتمام شديداً في القرن السادس بجمع كتاباته بأية وسيلة، حتى أن قزمان أحد رؤساء الأديرة كان ينصح الإنسان بأن ينسخ في الحال أي شيء يصادفه من أعمال أثناسيوس، وإذا لم يتيسر له ما يكتب عليه فليكن ذلك على ملابسه. وهذا يعلل كثرة الأعمال الجزئية التي للأنبا أثناسيوس والتي تدخل ضمن سلسلة (مقتطفات آباء الكنيسة) في الغرب المسماة السلاسل الذهبية (Catena Aurea). وكذلك تسبب هذا في وجود كثير من الكتابات المدسوسة عليه، أهمها ما يسمى بقانون إيمان أثناسيوس الذي ما زال مصدره قيد

الفصل الرابع : من أقوال بعض الاباء فى القديس اثناسيوس

* من عظة للقديس غريغوريوس النازينزي

{من ترجمة الأب متى المسكين، في كتابه المذكور، ص ٣٠٨- ٣١٠}

القديس اثناسيوس الكبير

حينما أمدح أثناسيوس فأنا أمدح الفضيلة ! ،
فالكلام عن أثناسيوس ومديح الفضيلة هما عملان مترادفان !
فأثناسيوس حاز الفضيلة بل اقتناها بل احتواها،
ولا نحزن فالذين عاشوا بوفاق الله مهما ارتحلوا عنا فهم لا يزالون يعيشون في الله !
من أجل هذا يُسمى الله إله ابراهيم واسحق ويعقوب لأنه ليس إله أموات بل إله أحياء.
ومرة أخرى أقول إني عندما أمدح أثناسيوس فأنا أمدح الله، الواهب الفضيلة للبشر...
... ومع أن الجميع هم صنعة يديه، فقليلون هم رجال الله، الذين بينهم المشترعون والكهنة والأنبياء والإنجيليون والرسل، والرعاة، والمعلّمون، وكل زمرة الروحيين والذين بينهم جميعاً من جئنا اليوم نمدحه !...
مع هؤلاء حُسب أثناسيوس مناظراً، فإزاء بعضهم يُحسب ممتازاً وتجاه الآخرين – أقول متجرئاً – يُحسب متفوقاً.
وبعض من هؤلاء أخذهم أثناسيوس نماذج لتفتُّحه الذهني، وآخرون معياراً لنشاطه والبعض مثالاً لاتضاعه، وآخرون في الغيرة المتقدة أو لمواجهة المخاطر أو للارتقاء إلى مستوى الأدب الجم، جامعاً من هذا وذاك كل أشكال الجمال الخلقي، وأخذهم جميعاً معاً في نفسه، فخرج لنا من هذا كله نموذجاً متكاملاً في الفضيلة، متفوقاً على كل أقرانه في الامتياز الفكري....
هذا الذي من أجل منفعتنا صار مثالاً لكل الآتين بعده !
ولكي نتكلم عن أثناسيوس ونعطيه حقه تماماً من الكرامة سيكون عملاً أكثر مما يحتمله الموقف الآن في حديثي معكم، لأن هذا يكون عملاً تاريخياً أكثر منه مديحاً كنسياً للذكرى، ولكنني أشتهي بالفعل أن يكون موضوع اهتمامي مستقبلاً كتابة تاريخ له، لمسرة ومنفعة الآتين بعدنا، كما كتب هو تاريخ أنطونيوس ذلك الرجل الإلهي الذي فيه رسم قوانين الرهبنة على مستوى الرواية كقصة.
فأثناسيوس شب منذ حداثته على ممارسة الحياة الدينية وسيرة التقوى، بعد دراسة مختصرة للأدب والفلسفة، الأمور التي لا ينبغي أن يكون جاهلاً بها أو غير متمهر فيها، وهو سينقدها مستقبلاً !!
أمّا بخصوص نفسه الوثابة التوّاقة للعلى، فأبت أن تبقى منحصرة في الأباطيل، بل ظل يهذ في كافة الأسفار للعهد القديم والعهد الجديد بعمق لم يبلغه أحد نظيره، فشب غزير التأمل والتفكير رصين السلوك وجمع هذا بذاك كما برباط ذهبي، قلما استطاع أحد أن يجمع بينهما، مستخدماً السلوك في الحياة كمدخل للتأمل، والتأمل جعله ختماً على الحياة كلها، لأن مخافة الله بدء الحكمة، أي أن الخوف هو قماط الحكمة الأول، ولكن متى قطعت الحكمة أقمطة الخوف الأولى فإنها تنبثق إلى أعلى في جو المحبة، فتجعلنا الحكمة أحباء لله وأبناء عوض عبيد.
وهكذا شبّ أثناسيوس متمرناً، كما ينبغي لكل من أراد الآن أن يرئس على شعب ويأخذ لنفسه مهمة قيادة جسد المسيح (الكنيسة) بمقتضى مشيئة الله وعلمه السابق الذي هو قائم في الأساس قبل كل أعمال الله العظمى !!

لقد سكب الله عليه هذه الخدمة الجليلة فجعلته واحداً من القريبين إلى الله، فاستأهل الخدمة المقدسة وكرامتها، وبعد أن أكمل درجات التدبير بكل إخلاص (شماس وكاهن بدرجاتهما) استؤمن على الرئاسة العليا للشعب أو بالحري مسؤولية العالم كله !!
ولست أعلم هل أخذ الكهنوت مكافأة للفضيلة التي حاز عليها، أو أخذ الكهنوت ليكون نبعاً وحياة للكنيسة ؟
فالكنيسة صارت كإسماعيل على صدر أمه، فأغمي على اسماعيل من العطش وأمّا الكنيسة فإلى الحق ! أو صارت كإيليا عندما احتاج إلى خرير نهر خابور عندما جفّت الأرض من الجدب فارتوى، لكي تبقى بذرة للصلاح حية في إسرائيل وحتى لا نبقى أيضاً مثل سادوم ونشابه عمورة.
لذلك فنحن حينما انطرحنا أرضاً، ارتفع أثناسيوس كقرن خلاص لنا وكحجر زاوية أبقى الله عليه ليربطنا معاً وبنفسه، أظهره الله في حينه الحسن، أو قل (أثناسيوس) هو النار التي أرسلها ليطهِّر به الشر الذي بيننا، أو هو (أثناسيوس) المذراة التي جاء بها الله لينقي أصحاب العقيدة الهشة المزعزعة من أصحاب العقيدة الراسخة الثابتة !!
أو (أثناسيوس) هو السيف الذي قطع جذور الشر من أصولها !!
لذلك وجده المسيح الكلمة طريقاً له،
والروح القدس وجد فيه من سيتنفس لحسابه !!
وهكذا ولهذا كله بصوت جميع الشعب وليس على طريقة الشر والغش التي ابتدعوها بعدئذ (الهراطقة)، ولا بسفك الدماء والقهر، ولكن بأسلوب رسولي روحاني قادوه إلى الكرسي الرسولي الذي للقديس مرقس ليخلفه في التقوى وليست أقل منه في الإدارة والخدمة !!.

* من عظة للقديس غريغوريوس النازينزي في القسطنطينية في عيد موت أثناسيوس سنة ٣٨٠
{من ترجمة الأب متى المسكين، في كتابه المذكور، ص٣١٠- ٣١١}

(كان أثناسيوس في أعماله متسامياً وفي عقله وتفكيره متواضعاً، لا يضَارَع في الفضيلة، ومنفتحاً لكل مقارع ومحاجج، لطيفاً، متحرراً من روح الغضب، مترفقاً، حلواً في الحديث، وحلواً أكثر في التدبير، ملائكي الطلعة، وملائكياً أكثر في الفعل، هادئاً عند التعنيف والمراجعة، مقنعاً في المديح، هذا وذاك دون أن يكون مُسفاً في المزيد من الكيل، سواء للذي يعنّفه، فهو يعنّفه كأب، أو الذي يمدحه فهو يمدحه كرئيس ذي وقار، وكان في ترفقه غير مأخوذ بعواطفه، وفي تعنيفه غير مساق بمرارة القسوة. فكان في هذا ذا وقار وفي ذاك حكيماً متبصراً بالعواقب !!
وفي الاثنين حقاً على مستوى التعقل !
وكان تدبيره كافياً لتمرين أولاده الروحيين بأقل حاجة إلى الكلمات !!
وكانت كلماته تغني كثيراً عن العصا !!
وكان استخدامه للعصا يغني عن السكين (الحرم) والله وحده الذي أنا واقف أمامه أتكلم لحسابه قادر أن يعطيني ما يستحق أن يُقال في حق نفس مثل أثناسيوس التي وُهبت قدراً

القديس اثناسيوس الكبير

كبيراً من النبالة وقدراً أقوى من سلطان الكلمة... هذا هو أثناسيوس. عندما كان في وسطنا، كان عمود الكنيسة.
لقد كان كونستانثوس يرى أن قمع كل مسيحيي الأرض شيء سهل !!
ولكن أمام قمع أثناسيوس أو قمع تعاليمه لما وجد الأمر جِدَّ خطير !!
وقنع الإمبراطور في نفسه أخيراً أنه لا فائدة من تدبير خطط لانتصاره علينا جميعاً طالما هذا – أي أثناسيوس – له هذه القدرة على المقاومة والمعارضة !!).

* أقوال أخرى للقديس غريغوريوس النازينزي (اللاهوتي) في القديس أثناسيوس
- (إنه وقف ضد كونستانثوس كملك يحارب ملكاً).
- كان في مجمع نيقية (أعظم المرافقين للأساقفة).

(مواعظ ٢١)

* أقوال للقديس باسيليوس الكبير في القديس أثناسيوس
- (قد تعلّم أن يحارب حروب الرب منذ صباه) (رسالته ٨٢).
- (له الاحترام الكلي والمديح بغير حدود، إنه صاحب الوعي العميق والمبادرة العملية والرقة الإنجيلية، رأس الكنيسة، الرجل صاحب النفس الكبيرة الرسولية، الأب الروحي).

* القديس هيلاريون أسقف بواتيه
(إني لو خُيرت بين الموت ومخاصمة أثناسيوس لفضّلت الأول على الثانية) (٦، ٣).

* القديس يوحنا الدمشقي
(هو حجر الزاوية في كنيسة الله).

www.servant4jesus.co.nr